﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر: 10]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيـةُ شُـروعٌ في تفصيلِ معنًى مُـجْـمَـلٍ سبَق ذكرُه

لَمّا قرَّرَ تعالى في السِّباقِ غُروريْنِ إجمالًا؛ الأوَّلُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، والثّاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ وفصَّلِ الغُرور الثّاني وتوابعه، وأبقَى تفصيلَ الغُرورِ الأوَّلِ إلى هنا؛ بدأَ في تفصيلِه بهذه الآيةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها كمالُ اتِّصالٍ؛ لأنَّ إثباتَ أنَّه تعالى قادرٌ على النُّشور بإثباتِ المَقيس عليه إثباتٌ لأنَّ له الحِكْمةَ والعِزَّةَ في الدّنيا والآخرة؛ مع ضميمةِ أنَّ مُنافسةَ الكَفَرة في العِزَّة فوقَ مُنافَستِهم في الحِكْمة، ومَن نافَسَ في الحِكْمة فإنَّما يُنافِسُ فيها لاكتسابِ العِزَّةِ، والكفرةُ إنَّما عبدوا الأوثانِ؛ ليعتزّوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ [مريم: 81][1]، ويحتملُ أنَّ الآية تفصيلٌ لِما أجملَه قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ الَّذي صدرَ فيه الحكمُ على الكافرينَ بالعذاب الشَّديد، وأنَّ ذلك الحكمَ بسبب مكرِهم، وصدرَ فيه الحكمُ على المؤمنين بالمغفرة والأجرِ الكبير، وأنَّ ذلك الحكمَ بسببِ قبولِهم الكلِمَ الطيّبَ والعملَ الصّالح.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾: (عزَّ) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّةِ والغَلَبَةِ والرِّفعةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.

والامْتِناعِ، خِلافَ الذُّلِّ[1]، وهذه المادَّةُ في كلام العربِ لا تخرجُ عن معانٍ ثلاثةٍ؛ أحدها: معنى الغَلَبَة، يقولون: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، يقال منه: عَزَّ يَعُزُّ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾ [ص: 23][2]، والثّاني: معنى الشِّدَّة والقوَّة، يقال منه: عَزَّ يَعَزُّ[3]، والثّالث: أن يكونَ بمعنى نَفاسَة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ[4]، ومعاني العزَّة الثّلاثةُ تجتمعُ كلُّها في حقّ اللّه تعالى في آنٍ واحدٍ، فلا يتخلَّف عنه، ولا تنقص عزَّته في حالٍ منَ الأحوال، ولا زمنٍ مِنَ الأزمنة مهما قلَّ، والمرادُ بالعِزَّةِ في الآية: الشَّرفُ والغلبةُ والحَصانةُ مِنْ أنْ يُنالَ بسوءٍ[5].

2) ﴿يَصۡعَدُ﴾: (صعد) أصلٌ يدُلُّ على ارتفاعٍ ومشقَّةٍ، من ذلكَ: الصَّعودُ وهو الذَّهابُ في المكان العالي، يُقالُ: صَعِد في السُّلَّم صُعودًا إذا ارتقاهُ وارتفعَ فيه، وهو خِلافُ الحَدورِ[6]، والجَمْعُ صَعائدُ وصُعُدٌ مِثْلَ عَجوزٍ وعَجائزَ وعُجُز، والصَّعودُ: العقبة الكؤود، وجَمْعُها الأَصْعِدَةُ[7]، والمقصودُ بالصُّعودِ في الآية: الإذهابُ في مكانٍ عالٍ، وهو مُستعارٌ للبُلوغِ إلى عظيمِ القَدْرِ، وهو كنايةٌ عن القَبولِ لدَيْهِ[8].

3) ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: (طيب) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الخَبيثِ، مِنْ ذلكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبيثِ[9]، والوصْف على وزْنِ فَيْعِلٍ صيغةٌ تدُلُّ على قوَّةِ الوَصْفِ في الموصوفِ، وهو المُتَّصِفُ بالطَّيِّبِ[10]، وهو ما تَستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النَّفْس[11]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ يَطيبُ طيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا[12]، والطَّيِّبُ أيضًا: الأفضَلُ مِن كلِّ شَيْءٍ[13]، ويأتي بمعنى

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).
(2) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صعد).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صعد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 185.
(11) الراغب، المفردات: (طيب).
(12) ابن سيده، المحكم: (طيب).
(13) الزبيدي، تاج العروس: (طيب).

الحلالِ[1]، والكلمةُ الطَّيِّبةُ: شهادةُ أَنْ لا إله إلّا اللّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ[2]، والمُرادُ بالطَّيِّبِ هنا: ما يَطيبُ ويَحْسُنُ مِنَ الكلام، وهو التَّوحيدُ والتَّمجيدُ وذِكرُ اللّه ونحوُه[3].

4) ﴿يَمْكُرُونَ﴾: (مكر) أصلٌ يدلُّ على الاحتيالِ والخداعِ[4]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[5]، والمَكرُ: إخفاءُ الكَيْدِ وإيصالُ المَضَرَّة، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يَستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[6]، والمقصودُ بالمَكْرِ في الآية: تدبيرُ إلحاقِ الضُّرِّ بالغَيْرِ في خُفيةٍ؛ لئلّا يأْخُذَ حِذْرَهُ[7].

5) ﴿يَبُورُ﴾: (بور) أصلٌ يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[8]، والبَوْرُ مصدرُ بارَ الشَّيْءُ يبورُ بورًا إذا هلَك، ودارُ البَوار: دارُ الهلاك[9]، والبائِرُ الكاسِدُ، وسوقٌ بائِرَةٌ أي: كاسِدَةٌ[10]، والبَوارُ في الآية مُرادٌ به فَرطُ الكَسادِ، أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، واستُعيرَ هُنا لخَيبةِ العَمَلِ[11].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ العزَّةَ الكاملةَ إنَّما هي له وحْدَه، فَمَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَسأَلْها مِنَ اللّهِ وحْدَه؛ فإنَّ للّه وحْدَه العِزَّةَ، وإلى اللّهِ وحْدَه لا إلى غيره يصعدُ الكلمُ الطّيّبُ، أي: يُقبل عندَه، ويكون مرضيًّا لديه، والعملُ الصّالحُ الصّادرُ عن عباده المؤمنينَ يرفعُهُ اللّه تعالى إليه،

**أعمالُ المؤمِنينَ تَنفَعُهم؛ ليَعلمَ النّاسُ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ سَعيٌ باطِلٌ**

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (طيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(5) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكر - كيد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بور).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (بور).
(10) ابن عباد، المحيط في اللغة: (بور).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.

ويَقبلُهُ منهم، ويُكافِئُهم عليه، والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئَةَ لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غايةَ الإهانةِ جزاءَ مَكرِهم، وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### سِرُّ فَصْلِ مطلع الآية:

التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ من مقاصدِ البُلغاءِ

هذه الآيةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ يوجِّهُ الخطابَ إلى أهلِ الكفرِ والشِّركِ؛ لكَشْفِ اغترارِهم بطلبهم العِزَّةَ في الدُّنيا؛ لأنَّ أعظمَ غرورِ المشركينَ ناشئٌ عن قَبول تعاليمِ كُبرائِهم وسادتِهم، وأعظمُ دَواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهمائهم وصُنّاعِهم هو ما يجدونه مِنَ العِزّة والافتنانِ بحُبِّ الرِّئاسة؛ فلا جرمَ كانت إرادةُ العِزّة ملاكَ تكاتُفِهم بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم على مناواة الإسلام؛ فأعلمَهم القرآنُ أنَّ كلَّ مُستمسكٍ بحبل الشِّرك مُعْرِضٍ عنِ التَّأمُّلِ في دعوة الإسلام لا يُمسِّكُه بذلك إلّا إرادةُ العِزَّة؛ فلذلك نادَى عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عنِ الدّين الحقِّ فلْيعلم بأنَّ العزّة الحقَّ في اتِّباع الإسلام، وأنَّ ما هم فيه مِنَ العِزَّة كالعدم[2]، ويحتملُ أنْ يكون الفصلُ لشبهِ كمالِ الاتّصال؛ إذ قد تقدّمَ حكمٌ على الكافرينَ بالعذاب وحكمٌ على المؤمنين بالأجرِ المستطاب، فنشأ سؤالٌ عن سبب الاستحقاقِ لذلك، أجابَ عنه مُبيّنًا سببَ ذلك معَ بيان الصّارف عنِ الإيمانِ إلى الكفر، وهو طلبُ العزّةِ الجوفاء مع أنَّها للّه ومَن سار على وفقِ أوامرِهِ.

### بلاغةُ موقعِ الآية:

موقِعُ الآيةِ جزءٌ جليلٌ مِن بلاغتِها؛ بل هو رأسُ بلاغتِها

كان الظّاهرُ أنْ تقَع هذه الآيةُ عقِبَ جملة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 341، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 538، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 330.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.

عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾؛ ليأتيَ التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ، ولكنَّ القرآنَ أتَى بها مِن بعد إقامةِ دليلٍ على شيءٍ مِن أهمِّ الأشياءِ التي يُبرزُ بها أهلُ الكفرِ والشِّركِ كفرَهُم وشركَهُم؛ وهو إنكار البَعْثُ؛ وقد ثبت بهذا الدّليل أنَّ للّه العزّةَ في الدّنيا؛ أليس هو الذي يُحْيي الأرضَ بعد مَوْتها؟، وأنَّ له العزّةَ في الآخرة؛ أليس هو الذي يُحيي المَوتى؟ وهدمُ عِزَّةِ الكفرِ والشِّرْك مِن بعدِ ذلك أبلغُ وأحكمُ وأعلى وأعظمُ.

### سِرُّ ذِكْرِ الكَوْنِ؛ مادَّةً وصيغةً:

البشر كاملو الرَّغبةِ في العِزَّة في الدُّنيا!

كان الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (من يرد العزة)؛ ولكنّه أتَى بـ(الكون) الماضي فاصلًا بين كلمةِ الشّرط وفعلِ الإرادةِ؛ فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾؛ لتصويرِ دوامِ إرادةِ العِزّة واستمرارِها؛ لأنَّها كالصِّفة اللّازمة لهم، وكالخُلُقِ الذي يكونُ مِن ديدنِ البشر؛ والمعنى: (مَن كان يريد العزّةَ في وقتٍ مِنَ الأوقات)، ونُظِمَ الكونُ فعلًا ماضيًا؛ دلالةً على أنَّ الإرادةَ المذكورةَ كالشّيءِ الّذي هو مُتحقِّقُ الوقوعِ؛ فهو كالثّابتِ المستقرِّ؛ إبلاغًا في طلبِ ذلك[1].

### بلاغةُ الحَمْلِ على اللَّفْظِ:

الحَمْلُ على اللَّفْظِ هنا مِن ضُروبِ إيجازِ القصْرِ

كلمةُ ﴿مَن﴾ يُحْمَلُ على لفظِها بالإفرادِ والتّذكير، وعلى معناها بالجمع مُذكَّرًا ومُؤنَّثًا؛ وفي الآية حُمِلَ على لفظِ بالإفرادِ والتّذكيرِ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾؛ حثٌّ لكلِّ فردٍ على حِدَةٍ على التَّأمُّلِ في دين الإسلام دينِ اللّه الحقِّ؛ فإنَّ فيه العِزَّةَ كلَّ العِزَّةِ، كما تُرشّحُ إرادةُ اللّفظ أنَّ المعبَّر عنه بـ﴿مَن﴾ كلُّ فردٍ فردٍ على سبيلِ الاستقصاء، ليفيدَ أنَّ كلّ فردٍ أرادَ العزّةَ وبحثَ عنها فليَبحثْها فيما يُقرِّبُهُ إلى اللّه تعالى.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

### علّةُ التّعبيرِ بـ(الإرادةِ) مضارعًا:

مَن أراد الشّيءَ اختارَه وأحبَّه

التَّعبيرُ بالإرادةِ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ يُصوِّرُ كمالَ رغبةِ الجنسِ الإنسانيّ في حصولِ العِزّة لهم في الدُّنيا؛ لأنَّها العَزمُ على الفِعْلِ أوِ التَّرْكِ بعدَ تصوُّرِ الغايةِ المُترتِّبةِ عليه مِن خيرٍ أوْ نفعٍ أوْ لذَّةٍ ونحوِ ذلكَ، ولأنَّها تكونُ لِما يَتراخى وقتُهُ، ولِما لا يتراخَى؛ فنفسُهُم في طلبِها طويلٌ[1]، ونظَم القرآنُ فعل الإرادةِ مضارعًا؛ للدّلالةِ على انفعالِهم بهذا المعنَى؛ كأنَّه يتجدَّدُ في أنفسهم وقلوبهم في وقتٍ بعدَ وقتٍ، ونظرًا إلى أعمالهم المُتجدِّدةِ التي هي مُؤسَّسةٌ على إرادتِهم.

### علّةُ التّعبيرِ بالعِزَّةِ معرّفةً بـ(أل):

البحثُ عنِ العِزّةِ الدُّنيويَّةِ من صورِ الغُرورِ بالدُّنيا

جاء مفعولُ الإرادةِ ﴿العِزَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ لتصويرِ حالةِ الاغترارِ بالحياةِ الدّنيا؛ فالبحثُ عنِ العزّةِ الدّنيويَّة ينجُمُ منَ الاغترارِ بها وبمباهجِها الفانية؛ إذِ الغلَبةُ والقوّةُ والشِّدّةُ والرِّفْعةُ والامتناعُ ونفاسَةُ القَدْرِ والكِبرُ والعُجْبُ وما جَرَى في هذا مِنَ المعنَى يتّصفُ به المغترّ الذي يظنُّ أنّه لا يزولُ، ونظَمَ القرآنُ معنَى العزَّة مُعرَّفًا بـ(أل)؛ للدّلالةِ على أنَّها العِزَّةُ الشّاملةُ الكاملةُ التّامَّةُ؛ "وتعريفُها للجنس"[2]، ومعنى الكمال يتْبعُه؛ لأنَّ أهل الكفر لا يريدونَ شيئًا مِنَ العِزَّة لأهل دينِ اللّه تعالى. "وقيل: تعريفُ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ الأولى للاستغراق أيضًا، أوْ للعهد؛ والمرادُ: الفَرْدُ الكاملُ، والمعنى: مَن كان يريد العزّة جميعَها أوِ الفردَ الكاملَ منها، وهي العزّةُ التي لا يَشوبُها ذِلّةٌ مِن وجهٍ فهو لا ينالُها؛ فإنَّها للّه تعالى وحده"[3]، ولا سبيلَ لنَيل شيءٍ منَ العزَّة إلّا بالتّمسُّك باللّه تعالى ومنهجِهِ القَويم.

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 35.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

### سِرُّ حذفِ جوابِ الشَّرط:

مَن طلَب الشّيءَ مِن غيرِ صاحبِه خابَ

في قولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ اسمُ شرطٍ جازم في محلّ رفعٍ مبتدأٌ، و﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ جملةُ الشّرطِ، وجملةُ الجوابِ محذوفةٌ تدلُّ عليها جملةُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ ثبوتَ العزّةِ للّه ليس بمُرتَّبٍ في الوجود على حصولِ الشّرط، وساغَ قيامُ هذه الجملةِ مقامَ الجوابِ؛ لدلالتها عليه، وتقديرُ الجواب: (فليطلبْها مِنَ اللّه)، أو: (فليستجبْ إلى دَعْوة الإسلام)، وسِرُّ حذفِ الجوابِ - علاوة على الإيجاز - هو تحريكُ نفوسِ المُتلقّينَ للقيام في مقامِ طَلَبِ العِزَّةِ مِن طريقِ اللّه تعالى؛ ويساعدُ على ذلك تهيئتُهُم بالحذفِ للإمعانِ في التَّفكُّرِ في دليلِ الجوابِ؛ فإنَّ مَن فَقِهَهُ لم يطلبِ العزَّةَ إلّا مِنَ اللّه، أي: إنَّ اختصاصَ العزّة به تعالى موجِبٌ لتخصيصِ طلبها به تعالى، والمعنى على هذا الوجه: مَن كان يريد العزّة وطريقَها القويمَ، ويُحبُّ نيلَها على وجهها.

وثمّةَ **وجهٌ آخَرُ** مِنَ المعنى؛ وهو: مَن كان يريدُ العزّةَ بمغالبةٍ فلن يأخذَها؛ فإنَّ العزّةَ ليست لغير اللّه، ولا تتمُّ إلّا للّه، وهذا المُغالبُ مغلوبٌ، وإنَّما حُذفَ الجوابُ إبلاغًا في تقرير معناهُ وتحقيقه، وثمّةَ **وجهٌ ثالثٌ** مِنَ المعنى؛ وهو: (مَن كانَ يريدُ عِلْمَ العزّة فلله العزّة جميعًا، فهو المتَّصِفُ بها)، وعلى هذا لا جوابَ محذوفٌ، وإنَّما المحذوفُ المضافُ إلى العِزَّةِ التي في الشّرط؛ وسِرُّ حذفِه تصويرُ كمالِ الرَّغبةِ في إرادةِ العِزَّة[1].

### معنَى (الفاء) ودلالةُ التّعبير بها:

(الفاءِ) داعٍ للمقارنة بينَ العِزّة المطلوبةِ وعِزّة الله تعالى

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ رابطةٌ بينَ جُملةِ الشّرط وجملةِ الجواب في الأصل، ولمّا حُذِف الجوابُ على بعضِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 12/ 268.

وجوه معنى جملةِ الشَّرط والجوابِ والجملةِ التي بعدَ الجوابِ كانت رابطةً بينَ الشّرطِ وهذهِ الجملة: (للّه العزة جميعا)؛ وفي هذا الرَّبْطِ في ظاهرِ اللَّفظِ إرشادٌ إلى الإسراعِ إلى طلبِ العِزَّةِ في ساحةِ دينِ اللّه تعالى ورضوانِه الأعظمِ.

### علّةُ التّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

العِـزَّةُ للملِكِ الأعظمِ الخالقِ

عَبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالة في قولِه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ تعليلًا في المعنَى للحُكْمِ الذي تُثْبِتُه الجملةُ؛ لأنَّه الاسْمُ المُهَيْمِنُ على جميعِ الأسماءِ والصِّفاتِ؛ فهو وحْدَهُ المُسْتَحِقُّ للعِزَّة كلِّها؛ على جهةِ الشُّمولِ والإحاطةِ.

### نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

فـي القـصـرِ نـوعُ تـعـريـفٍ بالألوهيَّةِ الحقَّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ المُتعلِّقانِ بالخبرِ على المبتدأ؛ لإفادة الاختصاصِ؛ أي: قَصْرِ عزّة الدّنيا وعزّة الآخرة على اللّه؛ بحيثُ لا يتجاوزُ المقصورُ المقصورَ عليه إلى غيرِه مطلقا؛ قصرًا حقيقيًّا مجازيًّا ادِّعائيًّا؛ لعدم الاعتداد بما للمشركين من عِزَّةٍ ضئيلةٍ، أي: فالعزّةُ للّه لا لهُم[1]، وتوكيدُ الحُكْمِ بالقصرِ يواجه إنكارَه من أهل التّكذيبِ والكفرِ، والقَصْرُ حَسْمٌ وتوكيدٌ؛ فيتناغَى معَ أسلوبِ الشّرط، ولا يُنافي دلالةَ القَصْرِ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]؛ لأنَّ ما للّه تعالى وحدَه العزّةُ بالذّات، وما للرّسول ﷺ بواسطة قُرْبه منَ اللّه، وما للمؤمنينَ بواسطة الرّسول ﷺ، وكأنَّه للإشارة إلى ذلك أُعيد حرفُ الجرِّ في جملةِ سورة (المنافقون)[2].

### سِرُّ وضعِ المُظْهَرِ موضِعَ المُضْمَر:

ليس كمِثْلِ عِزَّةِ اللهِ عِزَّةُ غيرِه

كان منَ المُمْكِن أنْ يقولَ القرآن: (فلله جميعا) بحذفِ المبتدأ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾؛ لدلالةِ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ عليه، أوْ بذكرها بالضّميرِ: (هي)؛ ولكنْ لمّا كانت العِزّةُ مقصورةً عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا كانَ مِنَ البلاغةِ التّصريحُ بلفظِها في سياقِ إثباتِها لمَن هي له دونَ غيرِه مُطلقًا، فهي العِزّةُ القويّةُ الحاضرةُ، وما يدّعيه غيرُه مِن عزّةٍ فهي الضّعيفةُ البالية الواهيةُ، وللإنباءِ بكمالِ المُغايرةِ بينَ عزّته تعالى والعزّةِ التي يُريدونها؛ فالعِزَّةُ له ولأهلِ دينِه حقٌّ، والعزّةُ لغيرِهم باطِلٌ.

### دلالةُ مجيء لفظ ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾ معرّفًا:

(أل) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ للاستغراقِ؛ بقرينة ﴿جَمِيعًا﴾؛ والمعنى: فلله أفرادُ العزّة في الدُّنيا وأفرادُ العزّة في الآخرة؛ وإذا كان لله تعالى ذلك فهو الإلهُ الحقُّ، وغيرُه الباطلُ، ويجوزُ أنْ تكونَ للجنسِ[1].

**اللـه ﷻ؛ هو مصدرُ العِزِّ كلِّه**

### علّةُ التّعبير بـ﴿جَمِيعًا﴾:

يُعرَبُ ﴿جَمِيعًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ حالًا، أي: العِزّةُ كلُّها لله، لا يَشِذُّ شيءٌ منها، فيثبتُ لغيره؛ لأنَّ العِزَّة المُتعارَفةَ بينَ النّاس كالعدم؛ إذ لا يخلو صاحبُها مِن احتياجٍ ووهَنٍ؛ والعِزَّةُ الحَقُّ للهِ، وهذهِ الحالُ أفادَتْ الإحاطَةَ؛ لأنَّ السّياقَ لتقريرِ العِزَّةِ التي هي لله، لا لغيرِه؛ فكانَتْ بمنزلة التَّأكيد للقصر الادِّعائيِّ؛ فحصلَتْ ثلاثةُ مؤكِّداتٍ؛ فالقصرُ بمنزلة تأكيدَيْنِ؛ لأنَّ الحَصْرَ ليس إلّا تأكيدًا على تأكيدٍ، وكلمةُ ﴿جَمِيعًا﴾ بمنزلةِ تأكيدٍ[2].

**عِـزَّةُ اللـهِ هيَ العِزَّةُ!**

### سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ﴾:

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها بيانٌ لِما يُطْلَبُ به العِزَّةُ؛ وهوَ التَّوحيدُ والعملُ الصّالحُ؛ فالقرآنُ قدَّرَ استجابةَ أهلِ الكفرِ لكون العِزَّة لله جميعًا؛ وأنَّهُم سألوا عن طريقِ

**إرشـادُهُـم إلى طريقِ عـزَّة الله إحسانٌ إليهم**

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.

تحصيلِ هذه العِزَّة؛ وسلوكِ السَّبيل إلى نَيْلِها؛ فأُجيبوا بأنَّه الطّاعةُ القوليَّةُ والفعليَّةُ؛ تحريكًا لأنْ يسألوا عنه، ويتأمَّلوا فيها؛ فغابَتِ (الواوُ)؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ[1].

### علَّةُ التّعبيرِ بـ(إلى):

مَـن كـان إليـهِ مآلُ الأمور كانَ الإلهَ الخالِقَ

عبَّر القرآنُ بـ(إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّه تعالى غايةُ الغاياتِ؛ وهذا مُؤسَّسٌ على قصرِ العزّة عليه تعالى؛ يؤيِّدُ هذا أنْ قيل: ﴿إِلَيْهِ﴾ على الأصلِ، ولم يُقَل: (إلى اللّه)؛ وما دامَ مآلُ أحوالِ الإنسانِ إليه تعالى فعليه أنْ يَرْكَنَ إليه، ويُحصِّلَ العزَّة مِن دينه.

### نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

التَّـنـاظُـرُ في الأسلوبِ كمالُ ترغيبٍ في عـزّة الله

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ: ﴿إِلَيْهِ﴾ على الفعلِ: ﴿يَصْعَدُ﴾ في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ودلالةُ التّقديمِ تفيدُ قصرَ صعودِ الكلم الطّيّبِ على اللّه تعالى قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ وهذا القصرُ مُشاكِلٌ للقصرِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ كأنَّ في هذا التَّشاكُلِ تنبيهًا على أنَّ القصرَ الثّانيَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ تعليلٌ في المعنى للقصرِ الأوَّل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ لدلالة القصرِ الثّاني على شُمولِ علْمِه تعالى وقدرتِه؛ ويُؤنِسُ بهذا التّعبيرُ عن ذي الجلال والإكرام بضمير اسمِ الجلالة في ﴿إِلَيْهِ﴾؛ على الظّاهر، دون إعادة اسمِه ظاهرًا، وفي التَّقديم دلالةٌ على كمال الاعتدادِ بصعود الكلِم الطّيّب، أي: إليه يصِلُ الكلمُ الطّيّبُ الذي به يُطلبُ العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزُّ صاحبَه، ويُعطي طلبَتَه بالذّات، وفي التّقديم إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما يُقدَّمُ مِنَ الكلِم الطَّيِّب إلى غير اللّهِ لا طائلَ تحتَه[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173، والراغب، المفردات: (صعد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

### علّةُ التّعبيرِ بالصُّعودِ:

كـلُّ نـفـيـسٍ سبيلُه شاقٌّ

عبَّر القرآنُ بالصُّعودِ في قوله تعالى: ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ وهو الإذهابُ في مكانٍ عالٍ؛ وهو مستعارٌ للبلوغ إلى عظيمِ القدر، والتّركيبُ بَعْدَ الاستعارةِ كنايةٌ عَنْ قَبول الكلِم الطَّيِّبِ لديه تعالى، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ الصُّعودَ مجازٌ بالاستعارة عن قَبوله تعالى إيّاهُما؛ وهو غيرُ مُستساغ، وإنَّما يُستساغ إذا كان تركيبُه كنايةً عنه بعد الاستعارة المذكورة أوْ إذا لم تكن استعارةٌ، وذكر أيضًا أنَّ الصُّعود حقيقيٌّ؛ لأنَّ ثمّةَ مضافًا محذوفًا في: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، والتّقديرُ: إليه يصعد كَتَبَةُ الكلم الطّيّب، وذهَب بعضُهم إلى أنَّه استعارةٌ لِما يصِلُ مِنَ العبدِ إلى اللّه؛ كما استُعير النُّزولُ لِما يصِلُ مِنَ اللّه إلى العَبْدِ، وعلى كلٍّ فبينَ الصُّعودِ والعِزَّة مِنَ التناسب ما يستدعي اصطفاءَ الصُّعودِ الذي تدورُ مادَّتُه على الارتفاع والمشقَّة، وقيل: الصُّعودُ مجازٌ مرسَلٌ عن قَبوله بعَلاقة اللُّزوم، وقيل: لا مانعَ مِن اعتبارِ حقيقة الصُّعود للكلِم؛ فلله تعالى تجسيدُ المعاني، وكونُ الصُّعود إليه ﷻ مِنَ المُتشابه، وعلى كلٍّ فالتّعبيرُ به مُلائمٌ للعِزّة المطلوبةِ مِن طريقِ دينِ الإسلام[1]، بقي أنّ معنَى الصُّعود وقعَ فعلًا مضارعًا؛ نظرًا إلى تجدُّد حصولِ الكلِم الطّيِّب مِنَ العبادِ؛ وأنَّ مِثْلَ الكلِم الطّيِّب ينبغي أنْ يَتكرَّرَ ويَكْثُرَ ويستمرَّ؛ لشرفِه في نفسِه أوّلًا، ولكونِ ذلك سبيلًا إلى غايةٍ نفيسةٍ؛ وهي العزّةُ التي للّه وحدَه.

### علّةُ التّعبير بـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾:

تحصيلُ الكلِم الطيّب مُيَسَّرٌ على الخلق

﴿ٱلْكَلِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ جَمْعُ كلِمةٍ، أوْ اسمُ جنسٍ جمعيٌّ، واحدُه كلِمةٌ، والمرادُ به الجاري على قوانينِ الشَّرْعِ عن نيَّةٍ حسَنةٍ وعقيدةٍ صحيحةٍ سواءٌ كان سِرًّا أوْ علَنًا؛ لأنَّه عَيْنُ الحِكْمةِ؛ فيُعِزُّ صاحبَه ويُثيبُه؛ فيتناولُ الذِّكْرَ والدُّعاءَ والاستغفارَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

وقراءةَ القرآنِ، وإطلاقُ الكلِم على ذلك - وإنْ كان واحدُه الكلمة - بالمعنى الحقيقيِّ: ظاهرٌ؛ لتضمُّنِه عِدَّةَ كلمات، ويجوزُ أنْ يكونَ القرآنُ عبَّر بالكلِم عنِ الكلام كما عبَّر عنه بالكلمة؛ مَجازًا مرسَلًا؛ لعَلاقَة الجُزئيَّة، أوْ أنْ يكونَ القرآنُ عبَّر بالكلِم تأسيسًا على حَمْلِ مفردِه على المعنى المجازيِّ الذي هو الكلامُ، فإطلاقُ الكلِم على ذلك لتعدُّدِه بتعدُّدِ القائلِ، وكأنَّ القرينة على إرادة المعنى المجازيِّ للكلِمة أو للكلِم الصّادقِ على الكلام الوصفُ بـ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾؛ بناءً على أنَّ ما يُستطابُ ويُستلذُّ إنّما هو الكلامُ دونَ الكلمةِ العَرِيَّةِ عن إفادة حُكْمٍ تنبسطُ منه النَّفْسُ أوْ تنقبِضُ، ودونَ الكلِم الّذي إفادتُه أَدنى مِنْ إفادة الكلام[1]، وإنّما عُبِّر بالكلِم دونَ الكلام؛ للإشارةِ إلى إمكانِ تحصيلِه ونَيْلِ العِزّة مِن طريقِه وسهولتِه والتّمكُّنِ منهُ؛ إبلاغًا في التّرغيبِ فيه.

### بلاغةُ التّعريف بـ(أل):

قـولُ الكـلـمِ الطَّيِّبِ يَكْمُلُ بِهِ العبدُ

عرَّف القرآنُ ﴿ٱلْكَلِمُ﴾ بأل في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لإرادة معنَى الجنس؛ أي: جنسُ الكلِم الطّيّب؛ إشارةً إلى شُمول علمِه تعالى وقدرتِه، أوْ لإرادة معنى الكمالِ في وصفه، أي: الكلمُ الطّيّبُ الكاملُ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ فيه قولًا واعتقادًا، وتعريفُ الوصفِ: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ تابعٌ لتعريفِ الموصوفِ.

### دلالةُ الوصف:

لا حُـجَّـةَ لِمَـن سكَـت لسانُه عن قـولِ الكلِمِ الطَّيِّبِ

وصَفَ القرآنُ الكلِمَ بـ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ إبلاغًا في التّرغيبِ في قولِه؛ على جهة التَّكرار والكثرة والاستمرار؛ لأنَّ معناه أنَّ العقلَ السّليمَ يستلذُّه ويستطيبُه؛ لِما فيه مِنَ الدّلالة على التّوحيدِ الذي هو مدارُ النَّجاةِ، والوسيلةُ إلى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 174.

النَّعيم المُقيم، أوْ يستلذُّه الشّرعُ أوِ الملائكةُ ﷺ، أوْ لأنَّه حسَنٌ يَقْبلُه العقلُ، ولا يرُدُّه[1]، وفي التّوصيفِ به إشارةٌ إلى علّة الحُكم عليه بالصُّعود، فاللّه طيّبٌ لا يقبلُ إلّا طيِّبًا.

### سِرُّ الوَصْلِ:

التَّواصُلُ بينَ الجملتيْنِ قويٌّ جِدًّا

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التناسُب؛ فهما جملتانِ خبريَّتانِ لفظًا ومعنًى، والعملُ الصّالحُ هو الألصقُ بالكلِمِ الطَّيِّبِ، والعملُ مقابلٌ للكلِم، أي: الأفعالُ التي ليست مِنَ الكلام، والرَّفْعُ قريبٌ مِنَ الصُّعودِ، والضَّميرُ الفاعلُ المستترُ للرَّفْعِ إمّا ضميرُ الكلم الطّيّب، وإمّا ضميرُ اسم الجلالة الذي في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، وبهذا العطف اكتملَ نيلُ العزّة باللّه تعالى، وذلك بالكلِم الطّيّب الدّالِّ على الإيمان بـ(لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه) والعملِ الصّالح المأمورِ به شَرعًا، فهو بمثابةِ قوله تعالى المتكرّر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

### نكتةُ تقديمِ القول على العمل:

الدَّعوةُ إلى نَيْلِ العِزَّةِ دعوةٌ إلى الإيمانِ والإسلامِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ مِن تمام قولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لأنَّ كلًّا منهما سبيلٌ لنَيْلِ العِزّةِ الحقَّةِ؛ الأوَّلُ القولُ، والثّاني العملُ، وإنَّما قُدِّم الأوَّلُ؛ لأنَّه أصلٌ للثّاني؛ لاشتمالِه على التّوحيدِ الذي هو رأسُ الإيمان؛ فمَثَلُ نَظْمِ ترتيبِ هاتيْنِ الجملتيْنِ كمَثَلِ نَظْمِ ترتيبِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ في القرآن؛ فإنَّ الإيمانَ مُقدَّمٌ عليه لا محالةَ، أوْ لأنَّ القولَ وسيلةٌ للعملِ؛ فقدَّم الوسيلةَ على الغايةِ؛ لأنَّ السّياقَ للإرشادِ إلى نَيْلِ المطلوبِ؛ وهو العِزَّةُ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 174.

### علّةُ التّعبير بالعَمَل معرّفًا:

القـولُ كالدَّغوى، والفعلُ كدليلها

عبَّر القرآنُ بالعمَل في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ ليُقابِلَ القولَ المدلولَ عليه بـ:﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في الجملةِ السّابقة؛ إرشادًا إلى ضرورةِ مُصاحبةِ العمَل الصّالح للقولِ؛ لأنَّ العملَ دليلُ صدق القول، والمرادُ بالعمل هنا ما هو فِعْلٌ، و(أل) للجنس؛ إرشادًا إلى ضرورةِ التَّكافؤِ بينَ القولِ والعملِ، وإلى أنّ أيَّ عملٍ صالحٍ مقبولٌ ومَرضيٌّ عنه، وتعريفُ الوصفِ: ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾ تابِعٌ لتعريفِ الموصوفِ.

### سِرُّ إفرادِ (العمل):

العملُ الصّالحُ شريفٌ في نفسِه؛ وإنْ قَلَّ

عبَّر القرآنُ بالعمَلِ مفردًا دونَ الجَمْعِ؛ إشارةً إلى التَّمكُّنِ من إتيانِه، وأنَّه في مَقْدورِ أهلِ التَّكْذيبِ والكفرِ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ فيهِ، وإشارةً إلى مُلاحَظةِ التّوحيدِ في هذا العمل أوْ هذه الأعمالِ؛ فبذلك تُنالُ العِزَّةُ؛ معَ ضميمةِ دلالةِ: (أل) على الجنسِ.

### بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾:

بالعمل الصّالح يصلُح العبدُ لنَيْلِ العِزَّة

الوصفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ كاشِفٌ للعملِ؛ ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لأنَّ العملَ المُطابِقَ للكلِم الطَّيِّبِ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا، والعملُ الّذي يرفعُه اللّه أوْ يرفعُه الكلمُ الطَّيِّبُ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا؛ ففي التَّصريحِ بالوصفِ إبلاغٌ في التّرغيبِ في هذا العملِ، وتنبيهٌ لطيفٌ على سوءِ عملِ الذين كفروا؛ وتمهيدٌ لتقريرِ ضدِّ هذا العمل الصّالح في جانبِ الكلمِ الخبيثِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ إلى المقارنة بينَ العِزَّتَيْنِ عزّةِ أهل الكفر والشّرك وعزّةِ الإسلام.

### نكتةُ تقديمِ المسند إليه:

لزومُ العملِ الصّالحِ شاقٌّ على النَّفْسِ

قدَّم القرآنُ المسندَ إليه ووصفَه على خبرِه الفعليّ المثبَت في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ وفي هذا تمكينٌ وتحقيقٌ للحُكم الّذي تُنتجُهُ الجملةُ في النَّفْسِ؛ عن طريقِ تشويقِها إلى معرفتِهِ

عند الإخبار بالمسنَد إليه، ومِن قبلِ الإخبار بالمسند؛ وداعي ذلك أنَّ الفعل شاقٌّ على النَّفْس؛ فكأنَّها تهربُ منه، فحقَّقَه القرآنُ فيها؛ إرشادًا لها إلى لزومه؛ فإنَّ القولَ يثبتُ بالفعل، ويتحقَّقُ ويتمُّ ويكمُلُ به؛ وبهذا التّقديم حصلت المغايرةُ بين الجملتيْن: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ و: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

### علّةُ التّعبيرِ بالرّفعِ:

مَـن رَفَـعَ اللهُ عملَه الصّالحَ نالَ العزَّةَ

جعَل القرآنُ خبرَ العملِ الصّالح فعلَ (الرَّفْع) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ والرَّفْعُ نقلُ الشّيء مِن مكانٍ إلى مكانٍ أعلى منه، وحقيقتُه نقلُ الجسم مِن مقرِّه إلى أعلى منه، وهو كنايةٌ للقَبول عند التَّعظيم؛ لأنَّ العظيم تتخيَّلُه التَّصوُّراتُ رفيعَ المكانِ، وإنَّما لم يُعْطَف العملُ الصّالح على الكلم الطّيّب؛ فيكون مسندًا إلى الصُّعودِ أيضًا، وأُخْبِرَ عنه بجملة: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾؛ مع تساوي الخبريْن؛ لفائدتيْن:

**أوّلُهما**: أنَّ الكلِم الطّيّبَ يصعَدُ بصاحبه إلى مقامِ القَبول عند الله تعالى؛ لأنّه المطّلعُ على ما في السَّرائر وحدَه، والعمل الصّالح يرفعُ صاحبَه على غيره منَ النّاس، وفي كلٍّ منَ الصُّعود والرَّفع رفعةٌ وعزّةٌ، فلا عزّةَ تُبتغى إلّا بالكلِم الطيّب لله، والعملِ الصّالح من أجلِ الله، فالصُّعودُ يكونُ لله تعالى والرّفعُ يكونُ بالنّسبة للنّاس.

**وثانيهما**: أنَّ الكلم الطّيّب يتكيَّفُ في الهواء؛ فإسنادُ الصُّعود إليه مناسبٌ لماهيّته، وأمّا العمل الصّالح فهو كيفيّاتٌ عارضةٌ لذواتٍ فاعلةٍ ومفعولة، فلا يُناسبُه إسنادُ الصّعود إليه، وإنّما يحسُنُ أنْ يُجعل متعلّقًا لرفعٍ يقَعُ عليه، ويسخّره إلى الارتفاع[1].

### دلالةُ المضارعة:

تَـكـرارُ العـمـلِ الصّـالـحِ شَـرَفٌ آخَرُ

نظَم القرآنُ معنى (الرَّفْع) فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ نظرًا إلى تجدُّدِ العمل الصّالحِ، وإرشادًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272 - 273.

إلى تَكرارِه والإكثارِ منهُ واستمرارِه؛ حتَّى يكونَ مُصاحبًا مُكافئًا للكلِم الطَّيِّبِ؛ ليحصُلَ التّناسُقُ المُؤدّي إلى نيل ما هو نفيسٌ؛ وهو العِزَّةُ الحقَّةُ الباقيةُ.

### بلاغةُ مَرجِعِ الضّميرَيْنِ:

تحصيلُ النَّفيسِ يتطلَّبُ مُكابَدةَ المشقَّةِ

الضّميرُ المستترُ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ عائدٌ إلى مَعاد الضّمير المجرور في ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ والضّميرُ المنصوبُ في ﴿يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ عائدٌ إلى العمل الصّالح، أي: يرفعُ اللّهُ العملَ الصّالحَ؛ وفي ذلك بيانُ أنَّ الفعلَ أعلى مِنَ القولِ؛ لا مِن جهة المقارنة في الذّات، وإنَّما مِن جهة أنَّه المقصودُ بالذّاتِ، والقولُ وسيلةٌ إليه؛ فالله سبحانه هو الذي يتولَّى رفْعَه، ولصاحبِه عندَه عزٌّ منيعٌ، ونعيمٌ مقيمٌ، وعملُه يفوزُ؛ وفي ذلك كلِّه تقريرٌ لنفاسة العِزَّة المطلوبة التي يُرشدُ السّياقُ إلى نيلِها، وأنَّ النَّفيسَ لا بُدَّ مِن مكابدة المشقَّة؛ للحصولِ عليه، والمشقَّةُ تكونُ في الأفعال، لا في الأقوالِ؛ فقصدُ السّياقِ المذكورُ يؤيِّدُ ما ذكرناه مِن تفسير الضّميرَيْنِ المرفوعِ والمنصوبِ[1].

### سِرُّ الوَصْلِ:

التَّواصُلُ بينَ المعاني في البيانِ العَالِيِّ سَخيٌّ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على مجموع قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التَّناسُب، إذ يقترنُ في الخيالِ حالُ الشّيءِ بضدِّه؛ وبعدَ أنْ عرفنا حالَ المُعتزّينَ باللّه بسببِ الكلِم الطّيّب والعملِ الصّالح ينتقلُ الذّهنُ إلى بيانِ حالِ المُعتزّين بالغرور بسببِ التّكذيبِ والمكر، فلا عزّةَ لهم ولا قيمةَ؛ أي: لَمّا بيَّن تعالى حالَ الكلم الطّيّب والعمل الصّالح بيَّنَ حالَ الكلم الخبيثِ والعملِ السّيِّءِ وأهلِهما؛ ففي الأوّل بيانُ ما يحصّل العزّةَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

مِنَ الحِكْمة، وفي الثّاني بيانُ ما يُكسِبُ الذِّلَّة، ويوجب النِّقْمةَ مِن رديء الهِمَّة.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ المعطوفَ عليه جملةُ الشّرط فقط: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ إذِ المعطوفُ فريقٌ مِنَ الَّذين يُريدون العزّة مِن أهل الشّرك، وإنَّما خُصّوا بالذِّكْر؛ لِما اختصوا به مِن تدبير المكْر؛ وهو مِن عطف الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمام بذِكْرِ الخاصِّ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مِن عطفِ الشّاهدِ على الحُكْم؛ ففي إخراج قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ مخرجَ الشّرط نوعُ توبيخٍ وتنبيهٌ للمخاطَبينَ على خطأِ رأيهم وفسادِ طريقتهم وتضليلهم فيما هم فيه مِن طلَبِ العزّة مِن غير مَوضعِها ومكانِها؛ كأنَّه قيل: أيُّها الضّالّون تنبَّهوا على خطئِكم، وتيقَّنوا أنْ ليس الوصولُ إلى المطلوبِ ما أنتم عليه مِن رَوْم العزّة مِن عندِ غير الله؛ لأنَّ العزّة كلَّها لله وحدَه، وطريقُ الوصول إليها الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، واعلموا أنَّ مَن أعزَّه الله فلا مُذِلَّ له، ومَن أذلَّه فلا مُعِزَّ له؛ ألا ترونَ إلى قريشٍ حين بذلوا جُهَيْداهُم في إطفاء نور الله، وإذلالِ مَن أعزَّه الله ورفَع من قدرِه، ومكروا تلك المنكراتِ السّيئات؛ مِن الإثبات والقتل والإخراج، وأبَى الله إلّا أنْ يُتِمَّ نورَه كيف قلَب الأمرَ عليهم؛ حيثُ أخرجهُم مِن مكّة، وأبادَهُم بالقتل في بدر، وأثبتهم في قَليبِه[1].

**نكتةُ التّقديم:**

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ لجريان ذِكْر عزّة الله؛ فقُدِّم ما هو المناسبُ لآثار عِزّة الله في حِزْبِه وجندِه[2]، ولأنَّ الآيةَ سيقَتْ للإرشادِ

**مِـنَ البلاغة العامَّة للمُغايَرة اللَّفْتُ والتَّنْبيهُ والإيقاظُ**

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، والطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 616، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 173.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 273.

إلى طلبِ عِزّة اللّهِ مِن بعد إقامة دليلٍ يُنْتِجُها، ويشهدُ لها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ فبيَّن القرآنُ أوّلًا السّبيلَ إلى ذلك، ثم حقَّقَه وأكَّدَه بما بعدَه.

### علّةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

عبَّر القرآنُ عن مُريد العزّة بغير اللّه تعالى بـ(الاسم الموصول) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ مضمون الصِّلة علَّةٌ فيما يردُ بعدَها مِنَ الحُكْم، والمعنى: لهم عذاب شديد؛ جزاءَ مكرِهم.

**اللّه يُخبرُهم بأنَّه عليمٌ بمكرِهم رقيبٌ عليهم**

### علّةُ التّعبيرِ بالمكرِ مضارعًا:

جعَل القرآنُ صلَةَ الموصولِ مكرَ السيئات في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، "والمكرُ تدبيرُ إلحاق الضّرّ بالغير في خفية؛ لئلّا يأخذ حذرَه"[1]؛ لأنَّ المكرَ يصلُح أنْ يكونَ أثَرًا قويًّا مِن آثارِ تزيينِ سوءِ العملِ حسنًا؛ فقد زُيِّن لأهل الكفر والشّرك حُسْنُ إيذاءِ نبيِّنا ﷺ وأهلِ الإيمانِ إيذاءً خفيًّا، ولأنَّ مريدَ العزّة بغير اللّه مِن شأنِه ذلك المَكرُ، كما تتحقّقُ به المقابلةُ مع الكلِم الطّيّب والعملِ الصّالح؛ إذِ المكرُ يشتملُ على قولٍ وفعلٍ معًا، فهو في ذاته من جنس الأقوال وارتباطِه بالسيّئات يُعطيه معنى الفعليَّة، ونظَم القرآنُ معنى المكر فعلًا مضارعًا لحكاية الحال الماضية؛ مِن مكرِ قريشٍ بنبيِّنا محمّدٍ ﷺ؛ لأنَّ الآية في الّذين مكروا برسول اللّه ﷺ بدار النَّدْوة؛ ففيه تصويرُها في مشاهدة السّامع، ولمّا كان لفظُ الآية صادقًا على ذلك السّبب وعلى غيرِه - إذِ العبرةُ بعُموم اللّفظ لا بخصوص السّبب؛ إذا تحقّقت صورةُ السّبب - كانَ في المضارع دلالةٌ على تجدُّد مَكرهم واستمرارِه، وأنَّه دأْبُهُم وهِجّراهُم[2].

**زُيِّنَ للذين كفروا مكرُ السّيِّئات**

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 616، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

### سِرُّ حذفِ الموصوف:

في الحذفِ تبشيرٌ ووعيدٌ

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ منصوبٌ، وعلامةُ نصبه الكسرةُ على أنَّه وصفٌ لمَصدرِ (المكر) نائبًا منابَ المفعولِ المُطلَق المُبيِّن لنوع الفعل؛ أو لِما في حُكْم المَصدر، فكأنَّه قيل: (والذين يمكرون المكر السّيّء)، أو (أصنافَ المكرِ السّيّء)، وفي تقدير ذلك مبالغةٌ في الوعيد الشّديد على قصدِ المكر، وفي حذفِ الموصوفِ وإبقاء الصِّفة إشعارٌ بكمالِ الصّفة في الموصوفِ، والتصاقِ الموصوفِ بها دون أدنى انفكاك؛ فالموصوفُ محضُ سوء، وبأنَّ السّوءَ هو مقصدُ الّذين يمكرونَ وكلُّ همِّهم، ونبَّه الآلوسي على أنَّ في الحذفِ إشارةً إلى عدم تأثيرِ مَكرِهم[1].

### سِرُّ حذفِ المتعلَّقِ:

مَعَ مبالغتِهم في المكرِ نجَّى الله نبيَّه ومَن معَه

منَ المقرَّر أنَّ فعلَ (المكر) يتعلَّق بالمضرورِ بواسطة (الباءِ) التي للمُلابسة؛ يُقال: مكرَ بفلان، والقرآنُ قال هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وحذف المتعلّق؛ لأنَّه ضمَّن: ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ معنى: (يكسبون أو يقصدون).

والوجهُ أنَّه لا تضمينَ، وإنَّما غابُ المضرورُ مِنَ الكلام وهو نبيُّنا ﷺ، ومَن معَه مِن أهل الإيمان؛ تنزيهًا لمقامِه الشّريف ﷺ، ولأنَّ الآية قرّرت أنَّ العزّة جميعًا لله، ومعلومٌ أنَّ العزّةَ لرسوله بواسطة قُربه مِنَ الله، وأنّ العزّة لأهل الإيمان بواسطةِ اتّباعهم لرسولِهم؛ فلن يتمكَّنَ أهلُ الكفر والشّرك منهم؛ وفي ذلك تمهيدٌ للإخبار عن مكرهم بأنّه: ﴿يَبُورُ﴾.

### علّةُ التّعبيرِ بالسّيّئاتِ:

مكرُ السَّيِّئاتِ عندَ أهلِ الكفرِ حَسَنٌ جِدًّا!

عبَّر القرآنُ بما هو مِنَ السّوءِ؛ وهو: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لتحصُّل المقابلة

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 618، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

بينَ: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و:﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾؛ لأنَّ السّوء ما يغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدّنيويّة والأخرويّة ومِنَ الأحوال النّفسيّةِ والبدنيّةِ والخارِجَةِ، وليُنبَّه في لُطْفٍ على أنَّ المُحدَّثَ عنه مُريدي العزّة مِن جنسِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسَنًا، وأنَّ العِزَّة الباطلةَ التي يطلبونها بالكفر والشّرك زُيِّن لهم أنَّها العِزّة الحقَّةُ، وبذا يتحقّقُ الطّباقُ بينَ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ إذِ الصّالحُ يدلُّ على العمل الحسنِ المقابلِ للعمَل السّيّء.

**بلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وجمعِها:**

عرَّف القرآنُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بـ(أل)، وتعريفُها تابعٌ لتعريفِ موصوفها المقدّر بـ(المَكرات)، واحدتُها (مَكْرَةٌ)، فيكون الموصوف مقدّرًا مجموعًا بناء على أنّ صفته - ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ - كذلك؛ و(أل) فيه للجنس، فكذلك في الصّفة؛ والتّعريف هو تعريفُ الجنس[1]، أي: جنس السّيِّئات؛ مِنَ الأقوال والأفعال الماكرة التي تكونُ منهم، قال ابنُ عاشور: "وكان حقُّ وصف المصدر أنْ يكون مفردًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، فلَمّا أريدَ هنا التّنبيهُ على أنَّ أولياءَ الشّيطان لهم أنواعٌ مِنَ المكر عُدِل عنِ الإفراد إلى الجمع، وأوتيَ به جمعَ مؤنَّثٍ؛ للدّلالة على معنى الفَعَلات مِنَ المكر؛ فكلُّ واحدةٍ مِن مكرِهم هي سيِّئةٌ... وأنواعُ مَكراتهم هي ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: 30]"[2].

ارتكبوا بابًا مِنَ السَّيِّئاتِ؛ كي ينالوا العزَّة!

وعبّر القرآنُ بجمع القِلّة؛ تصويرًا بالجمعيَّةِ لكثرةِ ما يكونُ مِنَ المَكراتِ السّيّئات مِن هؤلاءِ الّذين يريدونَ العِزّة مِن غير طريقِ اللّه، وهذا صورةٌ لعظيم رغبتِهم فيها، وفي القِلّة إشارةٌ إلى ضَعْفِها وبُطلانِها وحَقارتِها؛ ذاتًا وصفةً وأثرًا ومآلًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

**بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، ومعناه:**

مَـنِ اختُـصَّ بشيءٍ وجـدَه لا محالةَ

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فيها معنى الاختصاصِ؛ وهذا تمهيدٌ للقصرِ الحاصلِ بعدَ ذلكَ بتقديم ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وتحقيقٌ لهُ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ العذابِ الخاصِّ بهم، وفي هذا كلُّ ترهيبٍ مِن مَكْرِ السَّيِّئات، وقدَّم النّظمُ الجارَّ والمجرورَ على المسنَد إليه ووصفِه: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لإفادةِ قصرِ العذابِ الشّديدِ على الذين يمكرونَ السّيّئات؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ هذا المكرَ الموجِب للمقصورِ لا يكونُ إلّا منهم، وبنَى الجملةَ على القَصْر؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييزِ؛ فكان الألصقَ بقصْدِ التَّفْرقةِ بينَ العِزّة التي يريدونَها وأهلِها الماكرينَ وبينَ العِزّة التي هي للّه وحدَه، وقد اختارَها أهلُ الإيمانِ، والقَصْرُ تَشْديدٌ في تقريرِ الحُكْمِ؛ وهو بهذا ينظرُ إلى شِدَّةِ أهلِ الكفرِ والشّركِ في سبيلِ تحصيلِ العِزَّةِ، ولَمّا كانوا طالبينَ للعزّة بقوَّة رغبةٍ وعنفوانِ النَّفْسِ، فكان لسانُ حالِهم مُنكِرًا للآخرة وما يكونُ فيها مِن جزاءٍ وعقابٍ معَ إنكارِهم ذلك بلسانِ المقالِ واجهَهُم القرآنُ بالتّوكيدِ الذي ينطوي عليه القصرُ.

**علّةُ التّعبير بـ(العذاب) منكّرًا:**

الـجـزاءُ مِـن جنسِ العملِ

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: جزاؤهُم المُؤسَّسُ على مضمونِ جملةِ الصِّلةِ؛ فعُبِّر بالعذابِ؛ لشدّة الإيذاءِ الحاصلِ بالمكرِ؛ لأنَّه يكونُ في خفيةٍ؛ وقد مَرَّ في تفسير الآية السّابعة مِن (سورة فاطر) أنَّ أصلَ العذابِ الضَّرْبُ، ثم استُعير في كلِّ شِدَّةٍ؛ وهو بهذا توطئةٌ لوصفِه: ﴿شَدِيدٌ﴾، ونظَم القرآنُ المسندَ إليه: ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً؛ للدّلالةِ في نور الصِّلةِ والصِّفةِ واسميَّة الجملةِ على تعظيمه وفخامته

وتهويلِه، أي: هو عذابٌ "لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُؤْبَه عندَهُ؛ لِما يمكرونَ"[1]، وتنكيرُ الوصفِ: ﴿شَدِيدٌ﴾ تابعٌ لتنكيرِ الموصوفِ: ﴿عَذَابٌ﴾؛ فهو تمكينٌ وتحقيقٌ لهُ.

### دلالةُ الوصف بـ﴿شَدِيدٌ﴾:

أيُّ نَفْسٍ تُطيقُ عـــذابَ الـلـهِ الشّديدَ؟!

وصَف القرآنُ العذابَ بـ﴿شَدِيدٌ﴾ في قوله: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ معَ أنَّه مدلولٌ عليه ضِمْنًا بكلمة: ﴿عَذَابٌ﴾ المنكَّرة؛ إبلاغًا في تقرير شدّة الجزاءِ؛ لشدّة الإيذاء بمكرِ السّيّئات؛ إبلاغًا في التَّرهيب مِن ذلك المكرِ الذي كلُّه شَرٌّ وسوءٌ مَحْضٌ، وفي توصيفِ العذاب بـ(الشّديد) مبالغةٌ؛ لأنَّ (فعيلًا) موضوعٌ للمبالغة أوْ صفةٌ مشبّهةٌ دالّةٌ على الثّبوتِ والدّوام، وإنّما اختارَ توصيفَ العذاب بـ(الشّدّة) دون العظيم أوِ الأليم وغيرِهما؛ لأنَّ مكرَ السّيّئات حرصٌ على إيقاعِ أنواعِ الأذى بكلّ دقّةٍ وخفاء، فكانتِ الشّدّةُ موازيةً له ومستلزمةً للعظمةِ والإيلامِ.

### بلاغةُ الجملةِ الاسميَّة:

الاسميَّةُ الثَّوْبُ الـعـامُّ الـذي احتوَى المعنَى

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبرُ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ وهو مُكوَّنٌ مِن خبرٍ مقدَّم، ومبتدأٍ مؤخّر؛ ونَظْمُ جزائِهم مِن إثباتِ العذابِ الشّديدِ لهُم في صورة هذه الجملةِ الاسميَّةِ ملائِمٌ لشدَّة العذابِ، وتحقيقٌ لها في أنفس الماكرين المُكذِّبين.

### دلالة الواو في قوله ﴿وَمَكْرُ﴾:

خسر الماكـرون الدُّنيا والآخرة

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ عاطفةٌ للجملةِ بعدَها على جملةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ فهي في حُكْمِ الخبرِ عنِ الّذين يمكرونَ السّيّئات، وأفادَ المعطوفُ عليه الجزاءَ للمكرِ بالعذابِ الشّديد، وأفادَ المعطوف زوالَ ذلك المكرِ؛ لأنَّ المكرَ السّيِّءَ لا يحيقُ إلّا بأهلِه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468.

### نكتةُ تقديمِ مصيرِ الماكرين إلى العذاب على مصير مكرهم إلى البوار:

بـوارُ المكْـرِ يُنْتِجُ فـوزَ نَيْـلِـهِـم العِزَّةَ

قدَّم ما يكونُ في الآخرةِ على ما يكون في الدّنيا والآخرة معًا؛ وهو: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على ما يكونُ في الدُّنيا فقط؛ وهو: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، وفي التّقديم إبلاغٌ في تقرير بوار مكرِهم، وخيبةِ عملِهم؛ كأنَّه ذُكِر مرَّتيْن؛ مرّةً صراحةً في عجُز الآيةِ، لأنَّ الإخبارَ بأنَّ لهم عذابًا شديدًا في الدّنيا والآخرة يلزمُ منهُ ثبوتُ مضمونِ بوارِ مكرهم، والمبالغةُ في تقرير بوار مكرِهم مبالغةٌ في تقرير أنَّ العزّة التي يريدونها كخيط العنكبوت؛ فهي واهيةٌ باليةٌ باطلةٌ، فالعِزّةُ لله وحده، وهي العِزَّةُ الحَقَّةُ؛ فعليهم أنْ يطلبوها في اتِّباع دينِ الإسلام، ولا يبعدُ أنْ يكونَ تقديمُ الجزاءِ الأخرويّ في مقابلِ السّيِّئات، وتأخيرُ بوارِ مَكرهم في مقابلةِ فِعلهم المكرَ على قاعدةِ اللّفِّ والنَّشرِ غيرِ المرتَّب.

### دلالةُ الإضافةِ في: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تفنَّنوا في مَكْرِ السَّيِّئاتِ حتَّى اخْتُصّوا به!

أضافَ القرآنُ المكرَ إلى الإشارةِ لمُريدي العِزّة الماكرينَ في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ إشارةً إلى لزومِهم مَكْرَ السَّيِّئات؛ كأنَّه مُخْتَصٌّ بهم؛ وكأنَّهم لا يكونُ منهم سِواهُ؛ فهم يَتَفَنَّنونَ فيه، ويُبالِغون فيه؛ تمهيدًا للإخبارِ عنهُ بأنَّه يَبورُ.

### غرضُ التّعريفِ باسمِ الإشارة:

تميَّزوا في المكْرِ لإرادةِ تميُّزِهم بالعِزَّةِ

عبَّر القرآنُ عن مُريدي العزّة الماكرين بـ(اسم الإشارة) في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ دونَ الضّمير الذي هو مُقتضى الظّاهر؛ لتمييزِهم أكملَ تمييزٍ؛ بسبب ما هم فيه مِنَ الشَّرِّ والفسادِ مِمّا يُميِّزُهم عن سائر المُفسدين، واشتهارِهم بذلك؛ فيكون ذلك صورةً لتمييز (المكر) المضافِ إليهم ووضوحِه في علم الله تعالى وعلم رسولِه ﷺ؛ بما أعلمَه اللّهُ به منه؛ فكأنَّما أُشير إليهم وإلى مَكرِهم باسْمِ إشارةٍ واحدٍ على سبيلِ الإيجاز، ومعنَى البُعْدِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾

يُنبِّهُ على ترامي أمرِهم في الطُّغْيان، وبُعْدِ منزلتِهم في العُدوان، أي: ومكرُ أولئكَ المُفسدينَ الَّذين أرادوا أنْ يَمكروا به ﷺ[1].

### الموقعُ الإعرابيُّ للضّمير ﴿هُوَ﴾ ودلالتُه:

قَصْرُ البَوارِ على مَكْرِهِم اعتناءٌ بهلاكِهِم

الضّميرُ المُتوسِّطُ بين ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿يَبُورُ﴾ في قوله: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ضميرُ فَصْلٍ يُفيد القصرَ، أي: مكرُهم يبورُ دون غيرِه، ومعلومٌ أنَّ غيرَه هنا تعريضٌ بأنَّ الله يمكرُ بهم مَكرًا يُصيبُ المَحَزَّ منهم؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54][2]..

### علّةُ التّعبيرِ بـ(البوار):

مَكْرُ السَّيِّئاتِ والعِزَّةُ كالنَّقيضيْنِ؛ لا يجتمعانِ أبدًا

أخبرَ القرآنُ عن مكْرِ مُريدي العِزّةِ بـ(البَوارِ) دون الهلاكِ في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ إبلاغًا في تقرير هَلاكِه؛ مُراعاةً لشدّة الإيذاءِ فيه، وإشارةً إلى أنَّ هذا المكرَ لا يُحقِّقُ لهم العِزَّةَ التي يُريدونها؛ لبُطْلانِ أثَرِه وفسادِه؛ لأنَّ البوارَ لا خيرَ فيه؛ لأنَّه فرْطُ الكَساد، كسادُ التّجارة وعدمُ نَفاقِ السِّلْعة؛ وفرْطُ الكساد يؤدّي إلى الفساد؛ فلأجل هذا عُبِّر بـ(البوار) عنِ الفساد، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة؛ بجامع عدمِ التّأثيرِ في كلٍّ؛ فالبوارُ فيه معنى الهلاكِ والفسادِ وزيادةٌ، وقد يكون استعارةً لخيبةِ العملِ، والمآلُ واحدٌ[3].

### دلالةُ المُضارعة في ﴿يَبُورُ﴾:

إنَّ في بوارِ مَكْرِ قريشٍ لعبرةً لمَن يخشَى

نظَمَ القرآنُ معنَى البَوارِ فعلًا مضارعًا في قوله ﴿هُوَ يَبُورُ﴾؛ لحكايةِ بوار مكرِ قريشٍ الذي أخبرتْ به آيةُ الأنفالِ، وتصويرِها في مشاهدة المُتلقّين؛ كما نُظِم معنى المكر فعلًا مضارعًا ﴿يَمۡكُرُونَ﴾،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(3) الراغب، المفردات: (بور)، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.

وفيه أيضًا ترهيبٌ شديدٌ مِنَ المكرِ؛ لدلالتِه على تجدُّد البوار؛ كلّما تجدَّدَ شيءٌ مِن مكرِهم؛ "فالمضارعُ للاستمرارِ التَّجدُّديِّ"[1].

### سِرُّ ذِكْرِ أهلِ السّوءِ وجزائِهم، وغيابِ أضدادِهم:

فـي الـذِّكْـرِ والـغـيـابِ مَعًا إحسانٌ إلى مُريدِ العِزَّةِ

اشتمَل القِسْمُ الثّاني مِنَ الآية على تفصيلِ حالِ أهلِ الكلِم الخبيثِ والعَمَلِ السّيّء وجزائِهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾، في حين أجملَ في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ذكرَ جزاءِ أهل الكلِم الطّيّب والعمل الصّالح وإنْ فُهِم منَ الصُّعود والرّفع؛ لأنَّ ذكرَ أهل السّوء وجزائهم في القِسْمِ الثّاني إبلاغٌ في طلبِ تركِهم ما هم عليهِ والتَّخَلّي عنه؛ والذين يَطلبون به العِزّةَ الباطلةَ، فهم المقصودونَ في الآية بالإرشاد إلى العِزّة الحقَّة وطريقِها القويم، وأمّا أهلُ الإيمانِ فاقتُصِرَ في جزائهم على ذكر عزّتِهم من خلال الصُّعود والرَّفع لهم عمَّن سِواهم.

وفي الآية تقديرُ بَيانِ مَصير أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح، من العزّة والنعيم المقيم في الآخرة، من مدلول المقابلة مع مصير أهل المكر المذكور في الآية، وأمّا مصيرهم في الدّنيا فهو الصعود والرّفعة، في مقابل البوار المستحقّ على أهل المكر، وقد يأتي على وجه تقدير الإيجاز، والله أعلم.

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الإرادة والاختيار والمشيئة:

الإرادةُ أعـمُّ منهما مِن بعضِ الجهات

الإرادةُ: تكون لِما يَتراخَى وقتُه، ولِما لا يتراخَى، وقيل: هي العزمُ على الفعلِ أوِ التَّرْك بعد تصوُّر الغايةِ المترتِّبة عليه مِن خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحوِ ذلك، وهي أخصُّ مِنَ المشيئةِ مِن جهة وأعمُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 176.

منها مِن أخرى، وأعمُّ مِنَ الاختيار، فالاختيارُ: إرادةُ الشّيء بدلًا مِن غيرِه، ولا يكونُ مع خُطور المُختارِ وغيرِه بالبال، وأصلُ الاختيارِ الخيرُ؛ فالمختارُ هو المريدُ لخيرِ الشّيئَيْنِ في الحقيقةِ، أوْ خيرِ الشّيئَيْنِ عندَ نفسِه مِن غير إلجاءٍ واضطرارٍ، والمشيئةُ تكونُ لِما لم يتراخَ وقتُه، وهي ابتداءُ العزمِ على الفعل؛ فنِسْبتُها إلى الإرادةِ نِسْبةُ الضَّعْف إلى القوَّة، والظَّنِّ إلى الجزم؛ فإنَّك ربّما شئتَ شيئًا؛ ولا تريدُه؛ لمانعٍ عقليٍّ، أو شرعيٍّ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَر؛ توسُّعًا[1].

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 28، 35.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»